الأسلوبية التعبيرية في قصيدة "المنشق" لأحمد مطر

د. إبراهيم خليل *

في المعيار اللساني تعني الأسلوبية التعبيرية صورة من صور الانزياح، والعدول عن معيار الدقة والصواب في اللغة، فهي بحث في ما يتجلى في النصوص الأدبية من انتهاكات متعمدة للمعايير النحوية والدلالية، والاستعانة بقواعد إضافية واختيارات من جهة، واستخدامها في تحسين الأداء التعبيري من جهة أخرى. ويُعد تتبع الاستعارة – على سبيل المثال- ضربا من الإجراء على هذا المستوى. وقد لوحظ أن الاستعارة تقوم على ضرب من التوازي بين المستعار له والمستعار، وقد توقف عند هذا كثيرون.. ومن هؤلاء جان كوهين في بنية اللغة الشعرية، ويوري لوتمان في التحليل البنيوي للغة الشعر، ومكاروفسكي. غير أن الفضل في شيوع هذا اللون من الإجراء يعود لشارلز بالي Bally وتلاميذه الذين توسعوا توسعا أكبر في دراسة التعبير الأدبي، على أساس أن التعبير الأدبي وسيلة من الوسائل التي يلجأ إليها المنشئ لاجتذاب اهتمام القارئ، والتأثير فيه، أو عليه. وقد تحول مفهوم التعبير لدى كروزو إلى حدث فني .. إلى جمالية، فالكاتب لا يفصح عن إحساسه وشعوره إلا إذا أتيحت له أدوات دلالية ملائمة وتعبيرية رائقة، وما على الأسلوبي إلا أن يبحث في هذه الأدوات، وأن يعمل على دراستها، وتصنيفها، بغية وضع النص الأدبي في موضعه المناسب ، وسنحاول أن نوضح المراد من الأسلوبية التعبيرية إجرائيًا بقراءتنا لقصيدة "المنشق" لأحمد مطر:

أكثرُ الأشياءِ في بلدتنا

الأحزابُ والفقرُ

وحالاتُ الشّقاقِ

عندنا عَشْرةُ أحْزابٍ

ونصفُ الحزْبِ في كلِّ زقاقِ

كلّها يَنْشقُّ في الساعَةِ شِقيْنِ ..

وينشقُّ على الشقيْن شِقّانِ

وينْشقّانِ على شقيْهما

منْ أجْلِ تَحْقيقِ الوفاقِ

***

جَمَراتٌ تتَهاوى شَرَرًا

والبَرْدُ باقِ

ثمّ لا يَبْقى لَها إلا رَمادُ الاحْتراقِ

***

لمْ يَعُدْ عندي رفيقٌ

رَغْمَ أنَّ البَلْدةَ اكْتظَّتْ

بآلافِ الرّفاقِ

ولذا ...

شَكَّلْتُ مِنْ نَفْسيَ حِزْبًا

ثمّ إنّي .. - مثلَ كلّ الناسِ -

أعلنتُ عَنِ الحزْبِ انشقاقي .

مما يلفت النظر في هذه القصيدة أن المتكلم فيها هو المنشق الذي يشير إليه العنوان، وقد انتهت القصيدة بكلمة انشقاقي (أعلنت عن الحزب انشقاقي) وهذا يعطي الانطباع بأن في القصيدة فكرة مكتملة حاول الشاعر أن يعبر عنها بطريقة لا تخلو من تخييل، ولا تخلو من انزياح أسلوبي، ولا تخلو من الاستعارة، ومن التوازي، وفي الوقت نفسه من التماسك النصي الداخلي والنمو العضوي. فالمنشق يجمع أولا بين كثرة الأحزاب والفقر وحالات الشقاق. وفي هذا قليل من الانحراف عن العادة المتبعة في جمع الألفاظ لأداء فكرة معينة، فينبغي أن تكون الألفاظ متقاربة الدلالة، متشابهة المعاني، وهنا نجد للفقر بُعداً اقتصاديا وللأحزاب بُعدا سياسيا إيديولوجيا ولحالات الشقاق بعدًا فيه من السياسة شيء ومن الذهنية الاجتماعية شيء آخر. ويكرر الشاعر كلمة الأحزاب غير مرة، مما يضعها تحت الضوء، لافتاً القارئ المتلقي للموقف من تلك الأحزاب، وهذا الموقف يجري تسليط الضوء عليه بالإشارة لسبب تكاثر هذه الأحزاب، فهي تتكاثر بالانشطار والانشقاق. فكلمة ينشق وانشق وشقاق من الكلمات التي تتكرر - ها هنا- بصفة ملحوظة أكثر من غيرها، على ما فيها من إيحاء سلبي، ومن ظلال عن موقف المتكلم من الأحزاب التي بلغ الانشقاق بها حدا غير معقول، ولا مقبول. وبهذا يكون تكرار الكلمتين: أحزاب، وانشقاق، تكرارًا فيه دلالة تعبيرية على استهزاء وتهكم شديدين. فالتلاعب بلفظة الانشقاق:

كلها تنشق في الساعة شقين

وينشق على الشقين شقان

وينشقان على شقيهما

من أجل تحقيق الوفاق

مثلما هي الحال في البيتين الأخيرين ينشئ الشاعر بهما ضربًا من التوازي بين الانشقاق والاتفاق، وهو تواز قائم على التناقض الذي يبلغ حد المفارقة. فالمتكلم ينقل للمتلقي ما يقوله المنشقون عن أسباب انشقاقهم، وهو تأكيدهم بأن ذلك الانشقاق يجري لتسهيل الوحدة، والاتفاق. فالشاعر- هاهنا - يعبر بالقول

المتناقض عن معنى غير متناقض، وهو الإيحاء والتعبير عن أن شعارات هذه الأحزاب، والمنشقين عنها، شعارات زائفة تماما كزيف الجمع بين الانشقاق والاتفاق. وهذه المفارقة من الاختيارات الأسلوبية التي بعثت في هذه القصيدة مظهرا جماليا لايقل تأثيرا في المتلقي من تأثير الصورة التالية :

جمرات تتهاوى شررا

والبرد باقِ

ثم لا يبقى لها إلا رمادُ الاحتراقِ

وهنا نتوقف عند الاستعارة، فقد عقد الشاعر ضربًا من التوازي بين تلك الشعارات والشرر المتطاير من الجمر، كلاهما يشعر بالدفء، ولكن الحقيقة المحسوسة الملموسة على الأرض أنه لا دفء في البلدة، بل الموجود هو البرد حسب، ورمادٌ كالذي يبقى بعد أن ينطفيء الحريق. وهذه الاستعارة تستحق أن يوقف عندها، فهي أولاً اختيار ينم عن ابتكار من صاحب القصيدة، وهو ابتكار فيه جدة، ولا يترك القارئ إلا وقد أحس بضرب من الدهشة حيال هذه الصورة التي تفيض بالتهكم اللاذع، والسخرية الشديدة من أحزاب كهذه تدعي شيئا وتفعل خلاف ما تدعي. تعد الناس بالدفء ولا تمنحهم سوى البرد القارس. تعد الناس بالجمر ولا تبقي لهم منها سوى الرماد. وهي مع ذلك لا تفتأ تنشق حرصا على الوحدة والوفاق.

وبانتقال المتكلم من العام، وهو الحديث عن البلدة، وحالات الانشقاق، إلى الخاص وهو الحديث عما آل إليه موقفه هو من ذلك الذي يتوافر في البلدة، يقرر أن ينشئ حزبا بمفرده. لا لأنه فردي، ولكن لأن البلدة لم يعد فيها من الرفاق من هو خليّ من الانتظام لحزب، أو لفصيل منشق عن أحد الأحزاب، وهذا أيضا تعبير لا يخلو من المبالغة في السخرية، فأن ينشئ المرء حزباً بمفرده، فذلك منتهى التدليل على الإسفاف الذي وصلت إليه حال الأحزاب. ثم أن يقوم مجاراة لما يفعله الناس فينشق على الحزب الذي ينفرد فيه، بمعنى أن ينقسم على نصفين، فهذا أيضا منتهى التعبير عن هذا الوضع المتأزم تعبيرا لا يخلو أيضا من سخرية شديدة:

لم يعد عندي رفيق

رغم أن البلدة

اكتظت بآلاف الرفاق

ولذا

شكلت من نفسي حزبا

ثم إني- مثل كلّ الناس-

أعلنت عن الحزب انشقاقي

وزيادة في التعبير تصرف الشاعر بالتراكيب، فقدّم ما حقه التأخير وأخّر ما حقه التقديم؛ فإذا نحن نظرنا في مستهل القصيدة، وجدناه يبدأ بالخبر " أكثر الأشياء " ثم يأتي بالمبتدأ على وفق القاعدة التحويلية الثانوية لبناء الجملة الاسمية، وهو الأحزاب، والفقر، وحالات الشقاق. وفصل بين المسند والمسند إليه بشبه الجملة " في بلدتنا " ولو تساءل القارئ لم اختار هذا الترتيب، وقصد إلى هذا النوع من النظم، والضرب من الأسلوب، فإن الجواب هو الإلحاح على معنى الكثرة، والوفرة، فقدم ما هو أكثر تعبيرا عنها وهو كلمة أكثر الأشياء، وتواصل هذا النسق فيما يلي ذلك، فقال: " عندنا عشرة أحزابٍ " مقدمًا الظرف عندنا على عشرة.. لتوكيد التعبير عن المأزق الذي يعانية المتكلم، ومن ينتمي لهم، وينتسب. ثم قدم التوكيد بكلمة كُلّ على المؤكد، فقال:

كلها تنشق في الساعة شقين

وينشقّ على الشقين شقان

وينشقان على شقيهما

من أجل تحقيق الوفاق

إذ كان ينبغي، لو اعتمد الترتيب الأساسي للعبارة، أن يقول: ينشق كلها، ثم أقحم أيضا الجار والمجرور بين الفعل والمفعول المطلق الدال على العدد " في الساعة "، وإذا أنعمنا النظر في ذلك، وجدنا في ذلك تعبيرا عن السرعة في الانشقاق، ووفرة التشرذم، والتعبير عن حالة من عدم التريث، والانتظار لوقوع الانشقاق، مما يعبر عن عبثيته، وأنه لا مسوغ له إطلاقا، ومن طبيعة الجار والمجرور" في الساعة " أن ينقل للقارئ مثل هذا الإحساس. فالشاعر يستخدم اختيارات نحوية تعزز ثقته بجمال الأسلوب، والتعبير. وقد تكرر هذا الاختيار أيضا في " وينشق على الشقين شقان.. " ثم " وينشقان على.. " والتكرار - ها هنا- يعد فضلا عما فيه من وفرة الإيقاع- وذلك مما تعنى به الأسلوبية الصوتية - يتضمَّن شحنة كبيرة من التعبير عن الإلحاح على هذا التشقق. وقد حذف المسند إليه، وهو يحتل رتبة المبتدأ نحويًا والمشبّه بلاغيًا، في :

جَمَراتٌ تَتَهاوى شَرَرًا

والبَرْدُ باقِ

ثمّ لا يَبْقى لَها إلا رَمادُ الاحْتراقِ

إذ التقدير هي جمراتٌ تتهاوى شررًا. وقد تلاعب - ها هنا - بعلاقة الإسناد، فأسند التهاوي للشرر، وهو في الحقيقة يعني تلك الأحزاب، وما انشق عنها من أحزاب مذكرا بالأسلوب في قوله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) ومثال عبد القاهر الجرجاني (واشتعل البيت نارا) وفي هذا الترتيب لعناصر العبارة قوة لا تخفى للمعنى، وتوظيف جمالي للعلائق بين الألفاظ، إذ من الواضح أنه أكثر سلاسة مما لو قال: هي أحزاب تتهاوى مثلما يتهاوى الشرر ويتطاير من الجمر. فهذا النسق الأخير نسق نثري لا شعري يقوم على التفصيل ولاطراد في النظم، فيما يقوم النظم في الشعر على الحذف والتكثيف والإيحاء بما توحي به الكلمات من ظلال. وقد زاد على هذا بأن عدل عن أسلوب الخبر في " والبرد باق " إلى القَصْر، وهو أسلوب يجمع بين النفي والإثبات(الحَصْر) فلم يتبق من تلك الأحزاب إلا شيء يشبه الرماد الذي يتبقى من الحريق. وقد ألمع إلى ذلك بعبارة قصيرة مختصرة " ثم لا يبقى لها إلا رماد الاحتراق " واضرب عن "

منها " مستخدما لها، وفي ذلك بلاغ عن أنَّ هذه الأحزاب ما زالت، على الرغم مما تعانيه من حال التشرذم والتفرق، تتبجَّح بما لديها من شعارات فارغة، لا قيمة لها، ولا مزية، فهي كالرماد الذي ينم عن أنها كانت نارًا، ولم يبق لها منها سوى الرماد .

وجلُّ هذه البدائل الأسلوبية على مستوى التراكيب لجأ إليها الشاعر أحمد مطر فرارا من التعبير المباشر عن المشاعر التي يضمرها تجاه هذه الأحزاب التي تعاني منها الشعوب العربية، وتعاني من خلافاتها التي لا يبدو أن لها حدا في العاجل القريب من الزمن. ولهذا جاءنا في المقطع الأخير من القصيدة بما يشبه الذروة، عندما قال على لسان المتكلم الذي لم تعجبه تلك الأحزاب: إنه بحث عن رفيق واحد ليؤلف معه حزبا فلم يجد على الرغم من أن كل الناس في البلدة رفاق. وكلمة " رفيق " هنا استخدمت بمعنى الشريك في الحزب، وليس بمعنى الصديق. وتخيُّرُه هذا الاستعمال بالذات فيه شيء من التهكم الصريح. ولا يفوق هذه السخرية نكاية إلا قول المتكلم في القصيدة: إنه ألف حزبا مقتصرا عليه هو، فهو لا يضم غيره، ومع ذلك، وجريا على عادة الآخرين " غير أني – مثل كل الناس- أعلنت عن الحزب انشقاقي " فهنا بلغ الشاعر بقصيدته القمة في البنية، والذروة في السخرية، والتهكم اللاذع . فقد عبر عن طريق نسبة الانشقاق لحزب لا يضم إلا شخصا واحدًا، هو المتكلم، عن بلوغ الأزمة حالة من الهستيريا: هستيريا الانشقاق. ولو أنه لم يضفْ الجملة المعترضة " مثل كل الناس " لفتر الإحساس بهذه الهستيريا وضعُف، فالجملة " مثل كل الناس " عمَّمت هذه الهستيريا، وجعلت منها طابعًا لسلوك الآخرين في البلدة التي هي على المستوى الدلالي تحيل إلى المعنى العام لا الخاصّ، فهو من المؤكد، وعلى وفق السياق، لا يعني بلدة معينة، بل يعني شيئا أعمّ، واشمل، وهو الوطن ..

صفوة القول: إنّ هذه القصيدة على الرغم من قصرها، وبعدها عن الرموز البعيدة، لا تخلو من طاقة تعبيرية نشأت من اختيارات فردية مبتكرة عمد إليها الشاعر، وأفاد منها إفادة كبيرة في جعل الكلمات البسيطة التي يتألف منها النص ذات إيحاءات، وظلالٍ، قادرة على النفاذ في وجدان القارئ، والتأثير فيه

بوساطة السخرية المريرة، والتهكم اللاذع، مما يطبع الأسلوب في هذه القصيدة بالطابع الجمالي الذي لا يجْحده قارئ، ولا ينكره متذوق حاذق.